وخرجنا الى ساحة اللعب فذكرتني بساحة اللعب في مدرسة اثن وكانت الشمس قد كادت تتوارى في الحجاب رجاء الامام وهو رجل جليل القدر فدخل الجامع الذي تركه السيد احمد خان قبل ان يتمّ فاتحة الدين خلفوه وبادر التلامذة من ساحة اللعب وخلعوا احذية الكاوتشوك التي كانوا يلعبون بها وتوضأوا ودخلوا يصلون وراء الامام والروح التي علّم بها السيد احمد خان ترفّ فوق ذلك المعهد العلمي تعلّم الطلبة احترام الماضي وارتجاء المستقبل والسلام الذي يُنال بالعلم والعرفان

هذه خلاصة المقالة . وقد رأينا نحن اثنين من تلامذة تلك المدرسة فوجدناهما من اشد الناس ولاء لحكومة بلادهم

علم الاخلاق

لسبنسر

(٤) العدل (وهو يتضمن المساواة والانصاف)

لا شيء ادل على وجود الخير في الشرّ من وجود فضيلة العدل في تقيضة الانتقام ولو على قدر طفيف. فان الغرض الاول من مقابلة الاعتداء بمثله منع المعتدى عليه للمعتدي من سحقه ومحافظتهُ على حق وجوده الذي يتضمنهُ العدل . والغرض الثاني اجراء العدل مجراهُ بتأييد مبدإ المساواة بين الاثنين وذلك يكون بان يلحق المعتدى عليه بالمعتدي أضراراً مساوية للاضرار التي نالتهُ منهُ

على ان هذه الطريقة لاعادة التوازن قلما تفي بالمطلوب . لان المنتقم لا يكتفي عادة بمقابلة الاضرار التي نالهُ بمثلها بل يذهب الى ابعد من ذلك فيثير انتقام المعتدي وهكذا حتى تؤول الحال الى حروب مستعصية بين القبائل وعداوات موغرة مزمنة بين العائلات والافراد تبقى من جيل الى جيل

وقد يظهر الفريقان احياناً ميلاً الى الموازنة بين الاعتداء والانتقام حتى لا ترجح كفة الواحد على كفة الآخر . فان كثيراً من القبائل الهمجية مثل اهل استراليا الاصليين تظهر باعمالها ان قتل رجل من هذه القبيلة لا بدّ ان يقابل بقتل رجل من تلك وهو الذي ثبت انهُ قتل او اشتبه فيهِ . هذا ولما كان الموت من المرض او الشيخوخة يعزى عند بعض القبائل الى مكايد الاعداء وكان لا بدّ من مقابلتهِ بمثلهِ اقتضى الامر ان يفقد الفريقان من رجالها

لاعادة الموازنة . (وواضح ان هذا النوع من اعادة الموازنة لا يمكن ان يستمرّ الى النهاية اذ لو أُريد مقابلة الموت العادي سواءٌ كان من المرض او الشيخوخة بمثلهِ لانقرضت القبيلتان مثلاً) اما بعض القبائل التي هي اكثر ارتقاء كاهل سومطره مثلاً فانها تسوّي امثال هذه المنازعات بالمساومة جهرًا على دفع فدية من المال لا بالاغتيال

فاجراء العدل مجراهُ على هذه الكيفية بين القبائل المختلفة لهُ هذه الصفة المميزة وهي انهُ لا فرق فيهِ بين ان يكون الرجل الذي يُقتل انتقامًا مذنبًا او بريئًا

وما يجري بين القبائل من هذا القبيل يجري بين العائلات ايضًا . قال الاستاذ بلامنثريت عن بعض قبائل لوزون ما يأتي

" ان سفك الدماء شريعة مقدّسة عندهم . فاذا قتل عاميٌّ عاميًّا آخر سوّي الامر على طريقة بسيطة وهي قتل القاتل او آخر من عائلتهِ يكون عاميًّا مثلهُ . ولكن اذا قتل عاميٌّ رجلاً وجيهًا او شريفًا لم يُرتضَ بقتل القاتل بل لا بدَّ من قتل رجل مساويهِ في الرتبة لانهم يقولون انهُ لا مساواة في قتل رجل ليس احسن من الكلب . وعليهِ تفتش عائلة القتيل لعلها تجد بين اهل القاتل رجلاً وجيهًا تقتلهُ بدم قتيلها وتُجاهل القاتل الحقيقي . فاذا لم تجد مطلوبها انتظرت ريثما يرقى رجل من عائلة القاتل الى مصاف الاعيان فتنتقم منهُ لقتيلها ولو بعد سنين كثيرة . وبقي تمَّ الانتقام تصالحت العائلتان "

ففي هذه الحالة ترى الصفة المميزة هي المساواة بين خسارة الجانبين . ومثل ذلك يشاهد بين الشعوب السامية عمومًا . قال بركهارت عن العرب " من الشرائع التي تجري عليها طوائف العرب كلها ان من يسفك دم آخر من غير عائلتهِ يبيت مديونًا لتلك العائلة بدم المقتول . واولاد الدين كان يحقُّ لهم الانتقام عند ما وقع القتل يتوارثون ذلك الحقَّ خلفًا عن سلف . ولهذا النظام العادل الفضل الاعظم في منع قبائل العرب من ابادة بعضها بعضًا فان اخذ الثار على هذه الصورة يقلل سفك الدم في الحروب " وذلك لأن خوف الانتقام يمنع رجال العائلات والقبائل المختلفة من قتل بعضهم بعضًا . وكان السامِيُّون القدماء يرون رأي السامِيين الحديثين من هذا القبيل كما يستفاد مما ورد عن الاسرائيليين في العهد القديم كسفر الملوك الاول (١) وغيره

(١) مل ٢ ص ٢ ع ٣١ « فقال له الملك افعل كما تكلم واطرحهُ وادفنهُ وأزل عني وعن بيت ابي الدم الزكي الذي سفكهُ يوآب » وع ٣٣ « فيرتدُّ دمهما على رأس يوآب وزرع بيتهِ الى الابد ... الخ » والملك المتكلم هنا هو داود وقد اوصى بهذا الكلام ابنهُ سليمان وهو يحتضر

ثم ان ما كان يصيب العائلة من الضرر لم يكن مجرداً عن الشعور بما يصيب الفرد من الضرر ايضاً قل ذلك او كثر وهو واضح كل الوضوح بين بعض القبائل العجمية. قال بعضهم بصف قبائل غياناً " ليس لهذه القبائل نظام للبوليس لان احترام كل فرد منهم لحقوق الآخرين على موجب التقاليد القديمة وخوفه من قيام الجمهور عليه فيما لو خالف تلك التقاليد يجعلان علاقتهم بعضهم ببعض على غاية الانتظام .... واذا اخطأ واحد الى آخر اقل خطاء ولو سهواً فلا بد له من التكفير عن خطائه باحتمال مثله ". وكان العبرانيون يعنون بتسوية الضرر الفردي اكثر من عنايتهم بتسوية الضرر العائلي كما يستنتج من قولهم " نفس بنفس . عين بعين . سن بسن . يد بيد . رجل برجل " (تثنية ص ١٩ ع ٢١)

هذا ويظهر ان انحطاط المسأولية العائلية ونمو المسأولية الفردية مصاحبان للتغير الذي طرأ على النظام الاجتماعي فصار الفرد هو اساس تركيب المجتمع بدلاً من العائلة لانه كلما اسرع النظام العائلي الى الانحلال لم يعد ثمة جماعات تتبادل مسأولية الجرائم التي يرتكبها افرادها بل لا بد للافراد انفسهم ان يحملوا تلك المسأولية . ومن شكل الانتقام غير العادل الذي تسأل به الجماعات اكثر مما يسأل الافراد الذين يؤلفونها ينشأ شكل عادل يسأل به الافراد انفسهم عما يعملون ويتال الجاني جزاء ما جنت يداه فلا يحمل غيره عقابه

وفي كتب العبرانيين ما يؤيد ذلك . فقد مثل الله في كتاباتهم القديمة معاتباً المذنبين اليه ونسلهم ايضاً حيث قال " افتقد ذنوب الآباء في الابناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي ". اما في الكتابات المتأخرة فقد وردت نبوءة بمجيء زمان يبطل فيه هذا الامر. فقد جاء في سفر ارميا ص ٣١ ع ٢٩ و ٣٠ ما نصه " في تلك الايام لا يقولون بعد الآباء أكلوا حصرماً واسنان الابناء ضرست . بل كل واحد يموت بذنبه كل انسان يأكل الحصرم تضرس اسنانه "

وبين الشعوب الاوربية نرى نمو هذا الشكل من العدل مصاحباً لانحطاط نظام الجماعات وقيام نظام الافراد . ولذلك يستغرب الاوربي مما يقاسه هذا النظام حينما يصادفه كالصين مثلاً فانه اذا قتل صيني اوربياً فكثيراً ما نرى الحكومة تقدم رجلاً غير القاتل ليحاكم على الجريمة . وسبب هذا الفرق ان الهيئة الاجتماعية الراقية ترى ان العدل يقضي بالمحافظة على العلاقة التي بين سلوك الانسان ونتيجة سلوكه . اما الامم التي في اقل ارتقاء فترى ان اعظم مظاهر العدل او المساواة مقابلة الجرم بمثله ولا يستغرب ذلك في زمان راجت فيه سوق المشاجرات والمنازعات وكثر فيه القتل والجرح

ومما نراه ايضاً ان بعض القبائل تحافظ على مبدإ المساواة حتى في وسط الحرب . قال بعضهم يصف الحروب القديمة المذكورة في الكتب الهندية "ان عاطفة الشرف وعزة النفس التي اشتهر بها الهنود القدماء جعلتهم يعدّون الهجوم على العدو النائم اثماً معيباً . فان اسوأنا ايقظ قاتل ابيه من نومه قبلما ذبحه" . وكثير من التواريخ غير تواريخ الهند تشير الى انتشار هذا المبدإ في اماكن شتى وهو ان الفريق المهاجم في الحرب يجب ان يكون مساوياً للفريق المهاجم . غير ان المبدأ الاعمّ عكس ذلك وهو اغتنام كل فرصة لاغتيال الاعداء واخذهم على غرّة

ومبدأ المساواة في المعاملة اكثر ظهوراً بين اعضاء الجماعة الواحدة من المجتمع الانساني منهُ بين الجماعات المختلفة وارتقاؤهُ اعظم حيث الميل الى الحروب والانهماك بها اقلّ . هذا وان الحرب حتى الحرب التي غايتها الاخذ بالثار انما هي ظلم وعدوان اذ يؤخذ البريء فيها بجريرة الاثيم فيجرح ويقتل الذين لم يقتلوا احداً ولم يعتدوا على احد . وقد افضت الحرب بالضرورة الى انشاء نظام لا يلتفت فيهِ الى مطالب العدل سواء كان ذلك في طرقها الاجبارية بين صف المقاتلة او في استبدادها بالسبيد والخدم الذين يتبعون الجيش (القديدبين) او في اذلال النساء . وعليهِ فان علاقة افراد المجتمع الانساني بعضهم ببعض في عهد التمدن كانت اقرب الى العدل والانصاف كلما ابعدوا عن الحرب وشواغلها فلم تبدُ تباشير العدل وتزد وضوحاً وجلاءه الاّ بعد هذا الانقلاب

ولا بدَّ من الاشارة ايضاً الى العادات والعواطف التي تصاحب المسالمة . فقد ذكرت في فصل سابق (فصل الغزو) اقواماً مسالمين وقلت ان مسالمتهم للغريب كانت مصحوبة بمسالمتهم للقريب ايضاً وبعض السبب فيها احترامهم لمطالب الغير على ما يقتضيهِ العدل . وذكرت في الفصل الماضي (فصل الإثار) شهادة ارباب الاسفار بما تخصف هذه القبائل بهِ من الامانة العظيمة في معاملاتها . ولا ريب ان هذه الامانة دليل على شيوع عاطفة العدل . وأُضيف الى هذه الادلة ادلة اخرى تستنتج من معاملة هذه القبائل المسالمة لنسائهم واولادهم . فقد قابلت (في كتاب مبادىء الاجتماع) بين انحطاط المرأة عند القبائل المحاربة من همجية ومتمدنة بعض التمدن وارتفاع شانها عند القبائل المسالمة الهمجية وقلت ان قبائل التودا س يتعبون المرأة من عمل الاعمال الشاقة حتى الخروج من المنزل للاستقاء والاحتطاب مع انهم منحطون في امور شتى غير هذا الامر . وان نساء بعض القبائل الاخرى لا يعملن عملاً ما خارج البيوت ولا يكرهن على زواج من لا يحببنهُ مما يدلُّ على اعتراف تلك القبائل بيدإ

المساواة الذي هو من لزوميات العدل . وازيد على ذلك الآن شاهداً لم اذكره قبلاً . فقد روى السائح هلوب ان احد زعماء الوطنيين في جنوبي افريقية قال له عن قبيلته " انا لا نطلب دم بهيمة فضلاً عن دم انسان " ولذلك تحتقر هذه القبيلة القبائل القوية المجاورة لها . قال " وحجة اعدائهم عليهم انهم لينو العريكة سالمون للغريب . وهم يعاملون النساء بالرفق والانصاف خلافاً لمجاوريهم من البشوان والمتاييل "

فهذه الشواهد تدل على ان عاطفة العدل واضحة كل الوضوح حيث تسود روح السلم وتقل روح الحرب . اما التصريح بها فلا ينتظر من قبائل همجية مثل هذه لامتزاج عاطفة العدل عندها بالعدل نفسه وكل ما يعلم من هذا القبيل يعلم بالاستنتاج . فان في عدم تصور بعضها كيف يستولي الانسان على ما ليس له دليلاً على العدل . ومثله ما تفعله احدى القبائل المسالمة فانه اذا اضطر احد رجالها ان يهجر منزله فراراً من خطر يدهمه وكان عليه دين لصاحب المنزل وضع ما عليه في صرة وعلقها بعتبة الباب . وكذلك اذا اتهم رجل في بعض القبائل بالسرقة انتحر تخلصاً من العار . وفي غيرها اذا نسب اليه عمل قبيح حفر قبره بيديه ودفن نفسه . اما القبائل التي هي ادنى في سلم المجتمع الانساني الى حد انها تعرف القراءة والكتابة فاننا نرى صورة العدل واضحة في كتاباتها

على ان معظم الامم القديمة المحاربة كانت تخلط بين العدل والغيرية عموماً . فكتب الصينيين والفرس والهنود القدماء والمصريين والعبرانيين لا تفرق بين العدل من جهة والكرم والرفق من الجهة الاخرى كما يفهم من القاعدة التي يظن انها مختصة بالدين المسيحي على حين انه يوجد ما يشبهها عند الامم السابقة للتاريخ المسيحي وهي " كل ما تريدون ان يفعل الناس بكم افعلوا هكذا انتم ايضاً بهم " فانها تمزج الكرم بالعدل . فاولاً انها لا تفرق بين ما يجب عليك ان تفعله بالغير بناء على العدل والانصاف وبين ما يجب عليك ان تفعله له بناء على الرفق واللطف . وثانياً انها لا تتضمن اعترافاً صريحاً ولا غير صريح بمطالب الفاعل التي نسميها حقوقاً . اما العدل بحقيقة معناه فيتضمن عنصراً ذاتياً وعنصراً غيرياً اي العلم بمطالب الذات او النفس والعلم بمطالب الغير . والشعور بمطالب النفس وتأييدها لا يمكن ان تقوى في مجتمع اسس على الحرب والتعاون الاكراهي . ولو اطلقت يد كل انسان ليفعل ما يشاء ضمن دائرة العدل والانصاف لقلت يد المجتمع او شلت . وتحت الحكم المطلق مجال واسع للشجاع والكرم ولكن هذا المجال ضيق دون العدل . وكلما قلت اسباب العداء الخارجي بين الجماعات وزادت اسباب التعاون الداخلي اسرعت العواطف وصورها في النمو والارتقاء